تم تصوير المقال عن طريق
مركز أمجاد للمخطوطات ورعاية الباحثين

العنوان: الكتابة في الرقوق

المؤلف: يحيى وهيب الجبوري

جهة النشر: مجلة العرب - سبتمبر - ١٩٩٣

عدد الأوراق: من صفحة ٥٨١ - ٥٨٩

ملاحظات:

الكتابة في الرقوق

كانت الرقوق هي المادة الأساسية التي يكتب بها العرب، وقد كُتبت بها المصاحف والمؤلفات في العصور الأموية والعباسية قبل أن يشيع استعمال البردي والورق من بعده.

وترد في كتب التراث ثلاثة مسميات: الرق، والأديم، والقَضِيم، وكلها أنواع من الجلود فالرق: مايرقق من الجلد ليكتب فيه[1]، والأديم: هو الجلد الأحمر أو المدبوغ، والقضيم: الجلد الأبيض الذي يكتب فيه، وقد جاءت هذه الأسماء الثلاثة في الشعر الجاهلي.

فأما الرَّقُّ فقد جاء في شعر حاتم الطائي في قوله:[2]

أتعرفُ أطلالاً ونُؤْياً مُهَدَّما كَخَطِّكَ في رَقٍّ كتاباً مُنَمْنَما

وفي شعر الأخنس بن شهاب التغلبي:[3]

لابنةِ خطّان بن عوفٍ منازلُ كما رقَّشَ العُنوان في الرَّقِ كاتبُ

وفي شعر طرفة بن العبد[4]:

كسطورِ الرَّقِّ رقَّشَهُ بالضُّحَى مرقِّشٌ يشمُهُ

وجاء كذلك في شعر خويلد الهذلي:[5]

وإني كما قال مُمْلي الكتاب في الرَّقِّ إذ خطَّه الكاتبُ

وقد ذُكر الرق في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿والطُّورِ وكتابٍ مسطورٍ في رقٍّ منشورٍ﴾[6]

وأما الأديم فقد جاء في شعر المرقش الأكبر في قوله:[7]

← على ثلاثة جبال هذا أحدها، والثاني غرب جبل أَجَأ، والثالث في منطقة الأحساء عنده عين لاتزال معروفة، أمَّا متالع الأول فليس معروفاً الآن بهذا الاسم، ولكن صاحب كتاب «بلاد العرب» حدد موقعه تحديداً دقيقاً في غَرْبِ رَامَةَ.

(للبحث صلة)

حمد الجاسر

الـدارُ قَـفْـرٌ والـرسـومُ كـما   رقَّشَ في ظـهـرِ الأديـمِ قـلمْ

وكانوا في صدر الاسلام يكتبون كما كان يكتب الجاهليون على الأديم، فمما رُوي في زمن النبي ﷺ أن عليَّ بن أبي طالب كان يكتب في الأديم ما يملي عليه رسول الله ﷺ، وذلك ماجاء في حديث أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: (إن النبي ﷺ دعا بأديم وعلي بن أبي طالب عنده، فلم يزل رسول الله ﷺ يُملي وعليٌّ يكتب حتى ملأ بطن الأديم وظهره وأكارعه[٨])، ومن ذلك أيضاً عهد الخيبريين من اليهود وككتاب النبي ﷺ إلى كسرى، كما كتبت المصاحف في جلود الظباء[٩]، وفي خبر تحريم المدينة مارواه بن حديج قوله: (فان المدينة حرام، حرمها رسول الله ﷺ وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني[١٠])، وكانوا يكتبون القرآن الكريم في زمن النبي على الأديم، قال عثمان بن عفان عندما عزم على جمع القرآن: (فأعزم على كل رجل منكم ماكان معه من كتاب الله شيء لما جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن[١١]...)، وذكر أن عمر بن الخطاب انتسخ كتاباً على عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب، ثم جاء به في أديم[١٢]، وكذلك كتب سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص دَيْناً على نفسه في قطعة أديم ابتغاها عند خرَّاز قريب من بيته[١٣].

وكان العرب يصنعون الأديم ولم يجلبوه من الخارج، فقد عرف الأديم الخولاني، نسبة إلى قبيلة خولان في اليمن، وقد مر في حديث رافع بن حديج قوله: (وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني)[١٤].

وأما القضيم فقد جاء في الشعر الجاهلي أيضاً، من ذلك قول امرئ القيس[١٥]:

وعادَى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ   وبينَ شَبُوبٍ كـالقَضِيمةِ قَرْهَبِ

وفي شعر النابغة الذبياني قوله:[١٦]:

كـأنَّ مجَرَّ الـرامسـاتِ ذيُـولَها   عليـه قضيمٌ نمَّقَتْـهُ الصَّـوَانِـعُ

وذكر في شرح البيت أن القضيم هو الأديم المخروز، وقال: عن القُتَبِي: القضيمة: الصحيفة البيضاء تقطع ثم ينقش بها النطع. وجاء القضيم في شعر زهير ابن أبي سُلْمَى أيضاً في قوله[١٧]:

كـأنَّ دِماءَ المُؤْسِـدَاتِ بِنَحْـرِهـا   أَطِبَّـةُ صِرْفٍ في قَضيم مُسَـرَّدِ

وقد كُتب القرآن الكريم على القُضُم كما كُتب على العسب والكرانيف، قال الزهري: (قُبِضَ رسول الله ﷺ والقرآن في العُسُب والقُضُم والكَرانيف[١٨]).

وحين اتسعت حاجات الدولة في العصر الأموي إلى الكتابة في المصاحف والصكوك والرسائل والدواوين، كانت الرقوق هي المادة الأساسية التي استخدمت لفترة طويلة حتى بدأ القرطاس ـ وهي الكلمة التي أطلقت على صحيفة البرديّ ـ يزاحم الرقوق ويتغلب عليها لخفته وسهولة الكتابة فيه، ثم دخول الورق بعد ذلك في الحياة العلمية، ونجد مصداق ذالك فيما يقرره ابن خلدون في «مقدمته» إذ يقول: (وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيأة بالصناعة من الجلد لقلة الرَّفه وقلة التأليف صدر الملة كما نذكر، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك، فاقتصروا على الكتابة في الرق تشريفاً للمكتوبات وميلاً إلى الصحة والاتقان، ثم طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه، وضاق الرَّق عن ذلك فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية، وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت[١٩]).

ومعنى هذا أن الرق قد استأثر بوجوه النشاط المختلفة، ديوانية وعلمية حتى نشأت صناعة الكاغد، ومع وجود القرطاس الذي شاع في الحياة العلمية وزاحم الرق، فإن الرق بقي مستعملاً وبقي هناك من يفضله ويؤثره في الكتابة، وخاصة في الأمور التي لها شأن وخطر، وفي كتابة المصاحف، وكان من عيوب الرق أنه يقبل الغسل والمحو والتزوير إذ حُكَّ أو كُشِطَ ويبدو أن هناك محاولات حدثت في تزوير الكتب الرسمية، مما حدا بالرشيد أن يصدر أمراً ألا يكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى مُحي منه فسد، وان كشد ظهر كشطه[٢٠].

وكانت الكتابة السلطانية منذ العصر الأموي في القراطيس، يقول البلاذري

حكاية عن أبي الحسن المدائني: (وأخبرني مشايخ من الكتاب أن دواوين الشام إنما كانت في قراطيس من البردي، وكذلك الكتب إلى ملوك بني أمية في حمل المال وغير ذلك[٢١]).

على أن الرق بقي مستعملاً حتى العصر العباسي إلى أيام الرشيد حين أشار الفضل بن يحيى البرمكي بصناعة الكاغد في العراق، هذا مع وجود القرطاس واستعماله جنباً إلى جنب مع الرقوق، وليس معنى هذا أن الكتابة في الرقوق قد انتهت، انها ربما انتهت في الكتابات الرسمية ولكنها بقيت في الحياة العامة، من ذلك ان ابن داحة وكان من أهل النصف الثاني من القرن الثاني معاصراً لأبي عبيدة (توفي سنة ٢١٠ هـ) ومن أصحاب مجلسه[٢٢]، كان قد كتب شعر أبي الشمقمق (وإذا هو في جلود كوفية ودفتين طائفيتين بخط عجيب)[٢٣]. ويذكر الجاحظ في رسالة الجد والهزل، وهي إحدى رسائله التي كان يكتبها لمحمد بن عبد الملك الزيات يبين فيها وجوه استعمال الرق كصور العقارات ونموذجات النقوش، ويقول: (وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين وفي الصكاك والعهود وفي الشروط وصور العقارات، وفيها تكون نموذجات النقوش، ومنها تكون الخرائط والبرد[٢٤]. . .)، ويذكر ابن النديم أن الناس أقاموا (ببغداد سنين لا يكتبون إلا في الطروس لأن الدواوين نهبت في أيام محمد بن زبيدة، وكانت من جلود، فكانت تمحى ويكتب فيها[٢٥]). وقد كان الخطاطون إلى عصر متأخر يكتبون في الرقوق، لأن الخط يجود في الجلد كما يبدو، ففي القرن السادس يروي ياقوت الحموي عن المبارك الكرخي (المتوفى سنة ٥٨٥هـ) وقد وصفه بأنه كان (أوحد زمانه في حسن الخط على طريقة علي بن هلال ابن البواب) ويقول: (وكان ضنيناً بخطه جداً، فلذلك قل وجوده، وكان إذا اجتمع عنده شيء من تجويداته يستدعي طستا ويغسله[٢٦]). والكتابة التي تغسل لا تكون إلا في الرقوق.

وكذلك يروي الجاحظ عن اسحاق بن سليمان وكان أمير البصرة في عهد الرشيد، أنه دخل عليه بعد عزله من الإمارة: (وإذا هو في بيت كتبه وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر[٢٧])، ومن هذا النص نتبين أن الكتابة في هذا العصر كانت في الورق والرقوق، وأن الكتابة في الرق استمرت

مع وجود الورق إلى عصر متأخر. ويبدو أن العلماء كانوا يفضلون كتابة القرآن الكريم وكتابة حديث رسول الله ﷺ في الرقوق، والدليل ان كتابة المصاحف بقيت إلى عهد متأخر في الرقوق، أما كتابة الحديث وتفضيل بعض العلماء كتابته في الرقوق اجلالاً للحديث فيبينه الخطيب البغدادي الذي يروي عن أحمد بن بديل الكوفي، فقد بعث إليه المعتز ليأخذ الحديث عنه، حتى إذا دخل عليه واستقر في مجلسه وتهيأ لإمْلاَءِ الحديث، أخذ الكاتب القرطاس والدواة، فقال له منكراً: (أتكتب حديث رسول الله ﷺ في قرطاس بمداد؟) وسأله الكاتب: (فيم يكتب اذن، قال: في رَقٍّ بحبر)، فجاء بالرق والحبر وأخذ في الاملاء(٢٨).

ويلاحظ في هذا النص التفريق بين المداد والحبر، وان كان الشائع أنهما بمعنى واحد، ويبدو أن المداد كان يطلق على نوع من الحبر يناسب القرطاس، والحبر يناسب الرق، وقد ذكر القَلْقَشَنْدِيُّ أن الحبر صنفان، صنف يناسب الكاغد وصنف يناسب الرق ويسميه حبر الرأس(٢٩).

ونجد في أخبار العلماء أن الرق بقي مستعملاً في كتابة مؤلفاتهم إلى عصر متأخر بعد انتشار البردي والورق، من ذلك ما ذكره ياقوت في حديثه عن أبي الحسن بن عيسى الربعي النحوي المتوفى سنة ٤٢٠ هـ، وقد سرد أسماء كتبه وذكر من بينها كتابه الذي وضعه شرحاً على «كتاب سيبويه» إذ يقول: (إلا أنه غسله، وذلك أن أحد بني رضوان التاجر نازعه في مسألة فقام مغضباً وأخذ شرح سيبويه وجعله في إجَّانَةٍ وصب عليه الماء وغسله، وجعل يلطم به الحيطان ويقول: لا أجعل أولاد البقالين نحاة(٣٠))، ويروي ياقوت أيضاً أنه لقي في آمد سنة ٥٩٣هـ علي بن الحسن بن عنبر المعروف بالشميم الحلي، وكان شديد المغالاة بنفسه والغض من غيره (لا يقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً)، وقد حاول معارضة «مقامات الحريري» فأنشأ مقامات كمقاماته ثلاث مرات (ولكنه ما ان يتأملها حتى يستردها فيعمد إلى البركة فيغسلها(٣١))، وهكذا نجد الكتابة في الرقوق استمرت لدى العلماء والأدباء ردحاً من الزمن مع وجود الورق الذي هو أرخص منه، وكذلك وجود القرطاس قبله، وقد كان في الناس من يميل إلى الكتابة في الرقوق ويفضل ذلك على الكاغد، ومنهم من هجر الرق إلى الكاغد،

ولكل ميوله وأسبابه وحججه، وقد صور الجاحظ هذا الميل وهذه الرغبات في رسالة الجد والهزل التي ساقها إلى محمد بن عبد الملك الزيات، ونقد محمد له في استعماله الورق واهماله الجلود، ورده عليه وبيان حجة كل فريق ممن يفضل الورق أو يفضل الجلود، قال: (جُعِلتُ فداك، ما هذا الاستقصاء، وما هذا البلاء، وما هذا التتبع في المسألة، والتعرض لدقائق المكر، وما هذا التغلْغل في كل شيء يحمل ذكري، وما هذا الترقي إلى كل ما يحط من قدري، وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصيني، ومن الكاغد الخراساني؟ قل لي: لم زينت النسخ في الجلود، ولم حثثتني على الأدم، وأنت تعلم أن الجلود جافية الحجم، ثقيلة الوزن، إن أصابها الماء بطلت، وإن كان يوم لثق استرخت، ولولم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول الغيث، وتكره إلى مالكيها الحيا، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها. وقد علمت أن الوراق لا يخط في تلك الأيام سطراً، ولا يقطع فيها جلداً، وان نديت فضلاً عن أن تمطر، وفضلاً عن أن تغرق واسترسلت وامتدت، ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلا مع تقلص شديد وتشنج قبيح، وهي أنتن ريحا وأكثر ثمناً، وأحمل للغش، يغش الكوفي بالواسطي والواسطي بالبصري، وتعتق لكي يذهب ريحها وينجاب شعرها، وهي أكثر عقداً وعُجَرًا، وأكثر خباطا وأسقاطا، والصفرة إليها أسرع، وسرعة انسحاق الخط فيها أعم، ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير، ولو أراد مثل ذلك من القطني لكفاه ما يحمل مع زاده.

وقلت لي: عليك بها فإنها أحمل للحك والتغيير، وأبقى على تعاور العارية، وعلى تقليب الأيدي، ولرديدها ثمن ولطرسها مرجوع، والمعاد منها ينوب عن الجديد، وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق، وان كان فيها كل حديث طريف، ولطف مليح، وعلم نفيس. ولو عرضت عليهم عدلها في عدد الورق جلودا، ثم كان فيها كل شعر بارد، وكل حديث غث، لكانت أثمن، ولكانوا اليها أسرع.

وقلت: وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين، وفي الصكاك والعهود، وفي الشروط وصور العقارات، وفيها تكون نموذجات للنقوش، ومنها تكون خرائط البرد، وهن أصلح للجرب، ولعفاص الجرة، وسداد القارورة. وزعمت أن

الأرضة إلى الكاغد أسرع، وأنكرت أن تكون الفارة إلى الجلود أسرع، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع، وله أفسد. فكنت سبب المضرة في اتخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد، وكنت سبب البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في المحمل إلى المصاحف التي تثقل الأيدي وتحطم الصدور، وتقوس الظهور، وتعمي الأبصار[٣٣]).

والجاحظ هنا يعرض سيئات الرقوق وحسناتها، كما جاءت على ألسنة أنصارها وخصومها، وفي هذا دلالة على أن الرقوق بقيت مستعملة مع وجود الورق وانتشاره، وأن هناك من الناس من كان يفضل الكتابة في الرقوق وخاصة في الكتابات النفيسة العزيزة كالمصاحف والصكوك والعهود وغيرها. على أن كثرة التأليف وانتشار العلم ووفرة المكاتبات، ما كانت تتيح للرق أن يصمد أمام رخص وخفة ويسر وانتشار الورق، ولذلك كان الورق قد أستأثر بفنون الكتابة جميعاً في الشرق الإسلامي كله.

كانت بلاد فارس هي التي اشتهرت بانتاج الرقوق، ومنها كانت ترد إلى العراق، ويبدو أن دباغة وصناعة الرقوق قد نشأت في العراق، وخاصة في الكوفة، إذ كانت رقوق الكوفة أجود من غيرها لما فيها من لين، لأنها تدبغ بالتمر، يقول ابن النديم: (وكانت الكتب في جلود دباغ النورة، وهي شديدة الجفاف، وكانت الدباغة الكوفية تدبغ بالتمر وفيها لين) ويفهم من كلام الجاحظ أن هناك صناعة للجلود في البصرة وواسط، ولكنها دون جودة الجلود الكوفية[٣٤].

هذه هي حال الرق في شرق العالم الإسلامي، أما في غربه فقد بقي الرق والقرطاس (البردي) منتشرين في مصر وشمالي أفريقية على الرغم من وجود الورق، فقد بقيت بلاد المغرب تؤثر استعمال الرقوق مع وجود القرطاس لديها، يقول البشاري ـ في أواخر القرن الرابع ـ عن بلاد المغرب: (وكل مصاحفهم ودفاترهم مكتوبة في رقوق اللهم إلا ما كان ينبت من البردي في جزيرة صقلية في ذلك الزمان[٣٥])، مع أن القرطاس كان منتشراً في مصر وبلاد المغرب، وأن الأغالبة صنعوا القرطاس من نبات البردي الذي كان ينبت في جزيرة صقلية، وهو أشبه ببردي مصر، يقول ابن حوقل عن هذه الصناعة في حديثه عن صقلية: (وفي خلال أراضيها بقاع قد غلب عليه البربير، وهو البردي المعمول منه الطوامير، ولا

يعلم لما بمصر من هذا البربير نظير على وجه الأرض إلاّ ما بصقلية منه، وأكثره يفتل حبالاً لمراسي المراكب، وأقله يعمل للسلطان منه طوامير القراطيس، ولن يزيد على قدر كفايته(٣٦).

ولهذه المنزلة التي كانت للرق في أفريقية بالغ أهل هذه البلاد في العناية بصنعه، والافتنان في تهذيبه وتزيينه وتجميله، فقد بلغوا شأواً بعيداً في صناعة الرق وصقله وتحبيره وصبغه بألوان مختلفة بين الأخضر ولازوردي وأحمر قان. وبرعوا في تنعيمه وتجميله، مما جعله ينتشر في جميع آفاق المغرب والأندلس والعدوة الإفرنجية، وقد حفلت خزائن جامع عقبة بن نافع في القيروان بنفائس من هذه الرقوق التي تمتاز بالجمال ودقة الصنع وروعة التلوين(٣٧).

د: يحيى وهيب الجبوري
كلية الآداب ـ جامعة قاريونس

الحـــواشـي

(١) القلقشندي: «صبح الأعشى» ٢/٨٤ وانظر: الأسد: «مصادر الشعر الجاهلي» ص٧٧ ـ ٧٩.
(٢) «ديوان حاتم الطائي» ص٢٣.
(٣) «المفضليات» ص٢٠٤، «والمؤتلف والمختلف» ص٢٧.
(٤) «ديوان طرفة بن العبد» ص٦٨. (٥) «ديوان الهذليين» ٣/٧٠.
(٦) (الطور) ١ ـ ٢. (٧) «المفضليات» ص٢٣٧، «والأغاني» ٦/١٢٧.
(٨) الرامهرمزي: «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي»، مخطوط ص ١٥٢.
(٩) كوركيس عواد: «الورق» ص٤١٦.
(١٠) ابن حنبل: «مسند أحمد» ٤/١٤١، الخطيب البغدادي: «تقييد العلم» ص٧٢.
(١١) السجستاني: «المصاحف» ٢٣/٢٤. (١٢) الخطيب البغدادي: «تقييد العلم» ص٥٢.
(١٣) المصعب الزبيري: «نسب قريش» ص١٧٧ ـ ١٧٨.
(١٤) ابن حنبل: «مسند أحمد» ٤/١٤١، الخطيب البغدادي: «تقييد العلم» ص٧٢.
(١٥) «ديوان امرئ القيس» ص٨٦، الشوب والقرهب: الثور الفتي الكبير.
(١٦) «ديوان النابغة» (ضمن خمسة دواوين) شرح أبي بكر عاصم بن أيوب ص ٥٠.
(١٧) «ديوان زهير» ٢٣١. (١٨) الزمخشري: «الفائق» ٢/١٥٠.
(١٩) «مقدمة ابن خلدون» ص٤٧٠ ـ ٤٧١.
(٢٠) القلقشندي: «صبح الأعشى» ٢/٤٧٥ ـ ٤٧٦.
(٢١) البلاذري: «فتوح البلدان» ص ٤٧٠. (٢٢) الجاحظ: «الحيوان» ٣/٤٠٢.
(٢٣) السابق نفسه ١/٦١. (٢٤) «رسائل الجاحظ» ص ٢٥٢/٢٥٣.
(٢٥) «الفهرست» ص ٥٢. (٢٦) «معجم الأدباء» (ترجمة المبارك الكرخي)